(1)

11 سبتمبر
انهارت الأرض تحت أقدامي

كان 11 سبتمبر 2001 يوم عنف ودمار وخوف. ذهلت عندما شاهدت في التلفاز برجين يتساقطان، وألسنة النيران تلتهمهما، أصابتني صدمة عنيفة، أنا لا أصدق، هل هذا فيلم أم هو واقع، وهؤلاء الأشخاص الذين يرمون بأنفسهم من أعلى البرجين أهم أشخاص حقيقيون، وما هذا الرماد الذي يكسو المحيط كله؟أهو دمار حقيقي أيضاً؟!

أخذت أتنقل من محطة إلى محطة، الصور نفسها تتلاحق الواحدة تلو الأخرى، فهذه طائرة تصطدم بالبرج وتتحطم، في كل مرة كان قلبي يتقطع ألماً وحزناً. طائرة أخرى تقترب سوف تتحطم أيضاً، كل ركابها سوف يموتون!! كنت أشاهد ذلك وأنا عاجزة عن فعل أي شيء، أشاهد الموت مباشرة، كم كنت أتمنى أن يشاركني أحد ما أشعر به تلك اللحظة، لكني كنت وحدي بالبيت. عجزت حتى عن رفع، السماعة فقد وأضناني البكاء، وانتابني الحزن والغضب في آن واحد، يا له من عمل وحشي «يا له من جنون» كيف يجرؤ الإنسان ويقرر بكل برودة قتل هذا العدد من الأبرياء.

بعد قليل جاءت الأنباء عن مرتكبي هذه الجريمة المحتملين، مجموعة القاعدة الإرهابية التابعة لأسامة بن لادن، لأول مرة أسمع بهذه الأسماء، ولا أعرفهم، وكل ما أعرفه عنهم أنهم يستغلون شباباً ضعفاء. تقول

الصحافة إنهم يقاتلون من أجل نصرة الإسلام، وإنهم أعلنوا الجهاد المقدس، ولكن الجهاد ضد مَن؟ هل يعتقدون أنهم سوف ينتقمون للمظلومين بزرع الموت في العالم؟ لقد خجلت مثل كثير من المسلمين، وحقدت عليهم؛ لأنهم يستخدمون الدّين لتبرير هذه الجرائم. والحقيقة أن الغاية من كل هذا هي الاستيلاء على السلطة، فلا يمكن تبرير كل هذا العنف، سواء في الشيشان أو في فلسطين، أو في الولايات المتحدة.

نمت وكادت عيناي تنفجران من كثرة بكائي على هؤلاء الضحايا الأبرياء، وهؤلاء الأطفال الذين لن يروا أهلهم بعد اليوم، وتلك الأمهات اللاتي فقدن أولادهن أو بناتهن في هذه العملية الفظيعة.

في 13 سبتمبر عند الساعة السابعة والنصف استيقظت على رنين الهاتف، ابنتي جميلة تكلمني. كادت تفقد عقلها: افتحي التلفاز، هم يتكلمون عن زكريا، كانت تقول ذلك بصوت عال. وأنا لا أفهم شيئاً. عن ماذا تتكلم؟ تتكلم عن زكريا في التلفاز؟ أنا لا أصدق. لماذا يتكلمون عن ولدي؟ إنها مخطئة دون شك. لم أتصور في تلك اللحظة أن ما تقوله له علاقة بالتفجيرات. كيف أتصور أن ابني له علاقة بهذه المأساة الكبرى؟ وبعد لحظة، تصورت ما هو أخطر من ذلك. ربما كان ولدي بين الضحايا، ربما انهار البرج عليه!

لا – لا هذا مستحيل، هو شخص آخر دون شك، ماذا تقولين؟

لم يقولون إنه شارك في العملية، من المفروض أن يكون ضمن الإرهابيين الموجودين في الطائرة.

– ولكن زكريا ليس إرهابياً.

- أؤكد لك ذلك، لقد رأيت صورته واسمه. وقد قالوا إنه من أصل جزائري، له الاسم نفسه، هذا ما يبدو في الأمر.

مع ذلك فتحت التلفاز. أحاول طمأنة نفسي بقدر ما أستطيع، لكني كنت مذهولة وخائفة.

الساعة السابعة والنصف. يا لها من صدمة، صورته واضحة. بدين، وحليق الشعر، ووجه شارد: لقد تغير كثيراً. تعرفت عليه بصعوبة لكنه هو. هو زكريا عيناه سوداوان، ومدورتان، ونظرته العميقة، إنه هو دون شك. إنه ولدي. شعرت تلك اللحظة كأن شيئاً وزنه طنٌّ يسقط على صدري. فقدت القدرة على التنفس. الصحافي يقول إنه من بين الإرهابيين الذين ألقي القبض عليهم. فرنسي، اسمه زكريا موساوي، أخذ قلبي ينبض وكاد رأسي ينفجر من غليان دمي، إنه يشبه الجرس، كانوا يتحدثون عنه في التلفاز وكأنه مذنب، كأنه الرجل المكمل لخاطفي الطائرات العشرين. سقطت على الأرض من قوة الصدمة، وأخذت أضرب رأسي بيدي. هذا غير معقول هذا كل ما استطعت التلفظ به. البارحة كنت أبكي على أولئك الضحايا الأبرياء، واليوم أسمع أن ولدي هو أحد القتلة المجرمين. حان دوري لأدخل في هذه الدوامة، اتجهت نحو صورة زكريا القريبة، وكان عمره عشرين سنة، والابتسامة تكسو وجهه «زكريا قل لي إن هذا كله غير صحيح».

توقف الزمن وبقيت ملقاة على الأرض أصرخ خوفاً وألماً، أنا لا أصدق؛ لأنه كان لا يحب العنف، كيف تغير وكيف شارك في ارتكاب هذه الجريمة غير الإنسانية؟ ثم عاد إليَّ الأمل، ليست المرة الأولى التي يتهمون فيها بريئاً طبعاً، مرة رأيته كان متديناً وملتزماً، ولكن ذلك لا يعني أنه إرهابي، من يمكنه إفادتي؟

تذكرت في تلك اللحظة الزيارة الغريبة لرجال الاستخبارات من سنتين، لقد زارني رجلان من إدارة الأمن القومي وسألاني أين يوجد زكريا، فأجبتهما: كيف أعرف وأنا لم أره ولم أسمع عنه شيئاً منذ أربع سنوات. انصرفا وتركا لي «كرتاً» للاتصال بهما عند الضرورة، لم أكترث تلك اللحظة لهذه الزيارة، وخصوصاً أني لا أعرف ما هي وظيفة هذين الرجلين بالضبط. لقد احتفظت بهذا الكرت لأني شعرت أنني ربما سأحتاجهما في يوم ما.

اليوم لا يمكن لأحد أن يخبرني بالحقيقة عن ولدي سواهما، اتصلت بأحدهما فتفاجأ بمكالمتي، هل صحيح أن ولدي تم القبض عليه من طرف الإف - بي - آي؟ أجابني إنه لا يعلم شيئاً عن ذلك، أظن أنه صادق، لقد اطلع الآن على إيقاف ولدي من طرف الإف - بي آي، وأن التلفاز عرض صورته على أنه واحدٌ من العشرين إرهابياً الذين قاموا بعملية 11 سبتمبر، قال لي: سوف أتحرى الأمر وأخبرك. ثم أغلق السماعة. لم أفقد الأمل، مهما كان فهؤلاء من الاستخبارات الفرنسية، ربما أنهم لا يعرفون ما حصل، ربما حصل خطأ بالتلفاز.

وبعد ساعة اتصل بي رجل الاستخبارات. يا لها من ساعة طويلة! أنا آسف يا مدام، إنه فعلاً زكريا ابنك، فهو موقوف في السجن منذ شهر أغسطس، وقعت السماء على رأسي ماذا جرى؟ ماذا فعلت يا زكريا؟ هل ابني الذي حملته في بطني وأحببته ورعيته سنين طويلة في طمأنينة، هو الذي يشارك في هذه الجريمة البربرية.

وفي ثوانٍ، تذكرت حياتي كلها بعد سنوات عديدة من الكفاح، كنت أظن أنني أوصلت أبنائي إلى برّ الأمان وأبعدتهم عن الحقد والعنف والجهل أيضاً. لكن هذا الكابوس الذي كان يلاحقني رجع من جديد.

(2)

طفولتي: عطر الحرية

لا أتذكر إلا قليلاً عن والدي، لا أتذكر إلا صورة عجوز لحيته بيضاء كان نائماً فوق سريره وقامت عمتي بتغطيته بشرشف أبيض. مات وكان عمري لا يتجاوز الثلاث سنوات. لا أتذكر أكثر من ذلك، بعد وفاته قام عمي بتربيتي؛ بما أنه لم ينجب، فقد طلب من أمي السماح له بتربيتي، وكان لأمي أربعة صغار، وكان بيت عمي قريباً من بيتنا، فلم تتردد أمي في الموافقة.

كنا نعيش في قرية تقع في الجبل اسمها أزرو، وكان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية، كان لأهلي تجارة صغيرة في الأسواق، فنحن لسنا من الطبقة الغنية، ولا من الطبقة الفقيرة.

رعاني عمي بحنان لا يوصف وغمرني بكل عطفه، غمرني بكل الحب والعطف حتى كبرت وشعرت أن طفلة مثلي تستحق كل هذا العطف والاحترام أكثر من الولد. لم أكن أتصور تلك الأيام ما الذي يخفيه القدر، وكيف سيكون مصيري؟ عمي شخص متميز وفريد من نوعه في العائلة، شخص متحضر بعيد عن تقاليد التخلف، ولا يهتم بالقيل والقال، ولا يكترث بكلام الناس، بالرغم من معارضة الأهل التزوج بامرأة مطلقة. إن تزوجتها سوف تسقط العائلة في الهاوية، هذا ما كانوا يقولونه له، هذه ليست امرأة من مستواك، كل هذا لم يثنه عن حبها بكل أنفاسه، كان يتمتع بقيم سبقت عصره.

كنت لا أفكر إلا في اللعب مع زميلاتي خارج البيت، وكانت حياتي تشبه حياة أي طفلة أو أي طفل في عمري، لكن كان هناك حاجز خفي بين الأولاد والبنات، فبعض الألعاب ممنوعة على البنات، وكنت أتعجب كيف لا يمكن لبنت مثلي ركوب الدراجة الهوائية مثل الأولاد.

- هذه ليست لعبة بنات.

هذا ما كان يردده أخي الأكبر عندما كنت أطلب منه ركوب الدراجة بكل بلاهة.

- سألته لماذا؟ سوف أعدك ألّا أسقط.

- هذا ليس السبب، الدراجة خاصة بالأولاد فقط، ولا مناقشة بعد اليوم. كان عمري سبع سنوات وبدأت أصطدم بعالم غير المعقول؛ عالم الرجال، للرجال فقط.

كان عمي يقول لي: هذا هو الواقع، ولا يمكن التمرد على التقاليد لكن إذا كنت مصرة وكتمت السر بيني وبينك سوف أقدم لك هدية، قال ذلك بلهجة غريبة.

والمفاجأة كانت دراجة، لم أصدق ما رأيته دراجة ليست جديدة، ولا حديثة الطراز، ولكنها دراجة، وأجمل هدية في العالم. كنت أخرج معه إلى أطراف القرية ليعلمني ركوب الدراجة فوق طرقات ترابية، يا لها من فرحة، ويا له من شعور بالحرية، يا له من سر. فالتقاليد تتوارى عند الضرورة.

كنت أشعر أن الكل يعرف الحقيقة، لكن الكل يلتزم الصمت، لأنه لا يرى ما يحدث؛ فالكل ينافق ويسخر من هذه التقاليد القديمة أيضاً.

عند عودتي كان الأطفال يستقبلونني بابتسامة ماكرة نظراً لمغامرتي الكبيرة، وكان عمي لا يكترث لذلك ولا يهتم بمن يظن أني أتحداهم، كان حبه لي حب الأب لابنته، وكان لا يريد أن يجعل مني في المستقبل ربة بيت مثل كل البنات في خدمة زوجها فقط.

كنت أشعر أنه الوحيد الذي يشعر بعشقي للحرية التي تنمو بداخلي، وهو الوحيد الذي أحس بتمردي على كل القيود وعلى كل التقاليد، اليوم عندما أتذكّره تسيل دموعي، لكني لا ولم أصدق أنه استسلم أمام التقاليد بخصوص أهم شيء يخص المرأة في العالم الإسلامي ألا وهو التربية، في تلك الحقبة طلبت الذهاب إلى المدرسة؛ لأني كنت متعطشة للمعرفة والتعليم في آن معاً.

كانت كل بنات الحي لا تذهبن إلى المدرسة. القليل منهن لهن آباء متفتحون، وبما أنني كنت أعيش عند عمي فقد كنت أتوقع أن أمي لا تمانع في ذهابي إلى المدرسة، وفي يوم من الأيام قررت التحدث إليها، وكانت الإجابة: لا أستطيع فعل أي شيء لأن أخاك هو رب العائلة اليوم فهو الذي يقرر. لم أفقد الأمل، وفي المساء صارحت أخي بذلك، فقال لي أخي محمد: «لماذا تريدين الذهاب إلى المدرسة»؟ قال ذلك بعنف، تريدين الذهاب إلى المدرسة لتعلم الكتابة ومراسلة الأولاد. أليس كذلك؟ المدرسة لا تصلح لك، البيت بحاجة لك وتفيدينه أكثر. شعرت بالإهانة، فلا أحد يهتم بي، والكلام نفسه يتردد في كل مكان، ليس للبنت وظيفة أخرى سوى خدمة البيت.

هذا ما يحصل عند فقدان البنت لوالدها، فالابن هو وليها وله الحق في التصرف في حياتها مثل ما يشاء، هو الذي يقرر كل شيء، حتى فيما يخص أمه مثله مثل أي رجل مسلم، حيث هاجسه الوحيد هو السيطرة

على البنات - فقط -. إذا كانت عائشة غير مطيعة أخبرني وسوف ترى كيف أؤدبها. هذا ما كان يقوله لعمي في كل مناسبة يراه فيها وكان يفي بوعده وأكثر من ذلك، كان متأكداً أنه كلما يضربني تزداد طاعتي، حتى أصبحت أعتقد أنه يريد ترويضي لا تربيتي، كيف يسمح لي بالذهاب إلى المدرسة؟ وهو يعاملني بهذه العقلية. بإمكاني التجول عارية في الشارع والتغذي بالحشرات، ولكن الذهاب إلى المدرسة ممنوع بالنسبة لي، هذا شيء غير معقول.

ذلك هو مصيري، لا أذهب إلى المدرسة وليس هناك من يسألني عن رغبتي ومطلبي وأحلامي. اقتنعت أخيراً أن البيت هو النهاية في تقاليدنا وثقافتنا، ولا مجال ولا حق لنا في الأحلام.

بعد تلك المدة أخذ أخي ينظر إليّ نظرة مختلفة. كانت نظراته ثقيلة، ولا تخلو من الحذر، بمعنى آخر لقد أصبح يشعر بتمردي؛ لذا كان يراقب كل حركاتي، وتصرفاتي، عند خروجي من البيت.

بدل أن تذهب إلى المدرسة فما عليها إلا حفظ القرآن. هذا آخر ما قاله لعمي، كان عمي حكيماً وطيباً لهذا كان يوافق بسهولة. ابنتي العزيزة من الأفضل الذهاب إلى المدرسة القرآنية لتتعلمي من هو الله واحترام الآخرين، وهذا هو الأهم، لقد كان هذا أفضل من لا شيء. على الأقل سوف أكتشفُ أشياء جديدة.

ذهبت إلى المدرسة القرآنية حيث أقضي كل الصباح فيها، كنا نتعلم حفظ القرآن غيباً ونتعلم الصلاة، وكنا نحو الخمس والعشرين بنتاً نجلس على الأرض، وكل وقتنا مكرس لحفظ القرآن والانحناء من الأمام إلى

الخلف والعكس، في البداية لم أفهم لماذا هذه الحركات المتواصلة، ولكن فيما بعد شعرت أن هذه الحركات فيها شيء من التنويم المغناطيسي لمنعنا من التفكير في شيء آخر والتركيز في حفظ القرآن فقط، والحقيقة أنها فكرة رائعة للحفظ بسرعة، بعد حفظ ما تيسر من القرآن، يبدأ الإمام بتعليمنا احترام الأهل والقرآن..... إلخ. كل ذلك ليس بالسهل، وكان العقاب في انتظارنا عند أي غلطة.

بالرغم من سعادتي بالذهاب إلى المدرسة القرآنية إلاّ أن ذلك غير كاف لإشباع رغبتي؛ لأني متعطشة لاكتشاف الحياة، ومتعطشة للإفادة وللإحساس بأني أبني مستقبلي، ولكن كلما طالبت بالذهاب إلى المدرسة -مثل كل الأطفال- كانت الإجابة نفسها تتكرر، المدرسة لا تنفعك. وأخيراً حصل عمي على موافقة أخي لأساعده في الدكان الذي يمتلكه داخل السوق، هناك وأثناء خمس سنوات قضيتها بين الزبائن والعملاء، شعرت بقدرة فائقة على امتهان التجارة مثل أحسن صبي في عمري. أثناء هذه السنوات أحسست بمعاملة مغايرة لمعاملة الصبيان، وأصبحت أعامل معاملة الكبار، لا معاملة الصغار المبرمجة سلفاً لكل بنات بلدنا. حياتي الجديدة هي تلك الحياة التي كنت أحلم بها التي تسمح لي بالنمو والتفتح.

كان لي صديقتان فرنسيتان في حينها. مثل كل بنات المعمرين، فهما تنتميان إلى عائلتَيْن لهما مستوىً عالٍ أفضل بكثير مما نحن عليه، لكن ذلك لا يمنعهما من اللعب معنا وتبادل أجمل الأحاديث. كانتا تلبسان أجمل الفساتين، وتسكنان أجمل البيوت، لكن ما كنت أحسدهما عليه هو تلك الحرية التي تتمتعان بها، وإنهما تفعلان كل ما هو محرم عليَّ؛ مثل: الذهاب إلى المدرسة، وركوب الدراجة والذهاب إلى السينما، وخصوصاً

التكلم مع أي شخص كان. كم من مرة ضربني أخي الكبير لأني أجبت عن سؤال أحد الأولاد في الشارع. يكفي أن يقول له أي شخص إنه رأى عائشة تتكلم مع ولد -حتى وإن كان ذلك غير صحيح- لينهال علي ضرباً عند رجوعي إلى البيت. هذه الوشايات وهذه الادعاءات الكاذبة جعلت كل البنات تعيش حالة من الرعب المتواصل.

- لكن الأولاد عكسنا، يمكنهم مخاطبة أي بنت. هذا ما قلته لأخي في يوم من الأيام.

- نعم، هذا صحيح. لكنك بنت وانتهى.

في العاشرة من عمري كنت غير مقتنعة بهذه الإجابة، ولا بهذا المنطق، لماذا يسمح للأولاد بمخاطبة البنات؟ ولا يسمح للبنات بمخاطبة الأولاد؟ ونعاقب عند حدوث ذلك؟

قررت بداخلي ألّا ألتزم بهذه الممنوعات، ولكن في مجتمع مثل الذي نعيش فيه حيث يتجسس كل واحد على الآخر، على لباسه ومشيته، وتصرفاته يجب الحيطة، وعدم المغامرة.

قمت بإعداد خطة إستراتيجية؛ اقترحت على أمي تكليفي بأي مهمة تمكنني من الخروج من البيت، قبلت دون تردد، وبهذه الطريقة أصبحت المسؤولة عن شراء الحاجات كلها من أي محل، ولا مانع من مخاطبة الأولاد الذين يشتغلون في المحلات ولا خوف من المفاجآت. فما هي إلا مناقشات عابرة بلا طعم ولا معنى، كنت بالرغم من ذلك أشعر بالرهبة؛ لأن محادثتي هذه لها طعم الممنوعات.

كنت أختنق في هذا العالم الذي تم تفصيله وخياطته من أجلي، لست أدري كيف أعبر عن غضبي وحرماني، وفي يوم من الأيام عند مروري بحلاق الحي قلت له:

- هل يمكنك حلق شعري على الصفر من فضلك؟

نظر لعمري وكثافة شعري، تعجب الحلاق. وقال لي:

- لماذا تريدين قص شعرك على الصفر؟ شعرك جميل، هكذا.

- لأني أشعر بحكة دائمة.

طبعاً هذا غير صحيح، ولكنه إذا اقتنع أن القمل عشش في شعري سوف يقوم بحلقه دون تردد ودون أسئلة. تم ذلك فعلاً وعند خروجي من عنده شعرت بالتفات كل من حولي إليَّ، واتجهت كل الأنظار إلي، طبعاً كلهم يراقبونني لكني أفعل ما أريد، فهذا رأسي وأنا حرة في عمل أي شيء، ووضعت يدي على جمجمتي العارية.

عند فتح باب البيت حبست أنفاسي، كيف ستكون ردة فعل أمي؟ هل ستفهم أن ما فعلته ليس تمرداً على سلطتها، ولكنه تمرد بنت تبحث عن حريتها في عالم يملي عليها كل تصرفاتها؟

نظرت لي أمي متعجبة.

- ماذا حصل لك؟

أجبتها بكل براءة أني أشعر بحكة هذا ما في الأمر.

– لا فرق بينها وبين الأولاد. هذا ما قالته إحدى صديقاتها الموجودة في البيت.

ولد، هذا ما كنت أتمناه، أتمنى الحياة مثل الأولاد؛ الأولاد الذين يتمتعون بكل الحريات، ولا يمنعون من أي شيء، مثل أي ولد يتمتع بحياته مثل ما يشاء.

مرت سنتان على هذه الحادثة، عمري الآن اثنتا عشرة سنة، للأسف لقد حصلت أشياء غير سارة بالنسبة لي. لقد مرض عمي، وقررت زوجته إعادتي إلى أمي، اغتنمت هذه الفرصة لأحقق حلمي القديم. سجلت نفسي في مدرسة الحي دون علم أحد، لا أمي ولا أخي، أذهب إلى المدرسة خفية، وأحاول عدم إشعار أحد بذلك.

لعبة القط والفأر هذه لن تدوم طويلاً. بما أن أخي بدأ يشعر بشيء ما أخذ يراقبني خلسة واكتشف سري.

غضب غضباً شديداً. ما الذي أغضبه؟ هل هو ذهابي إلى المدرسة الموصدة أمام البنات أم خروجي عن طاعته؟ انفعل، وبدأ يصرخ، ويضربني ومسك بشعري وسحبني إلى البيت مسافة ألف متر تقريباً. حبسني مدة ثلاثة أيام، ومنعني الخروج من البيت.

بعدها قدمتْ مديرة المدرسة إلى البيت لتسأل عني، لقد قلقت لغيابي المفاجئ، شرحت لها أمي أني سجلت في المدرسة دون علم أحد، ودون موافقة ولي أمرها. يا للأسف قالت المديرة: لأن عائشة تلميذة متفتحة، وذات موهبة فائقة. أغلقتُ عيناي متمنية أن تقوم أمي بتقبيلي، وشكري وتعبيراً عن اعتزازها بي، وتقول لي ليست هناك مشكلة وسوف تعودين

غداً إلى المدرسة. لكن ذلك كان مجرد حلم، لست أنا من يقرر، أخوها هو الذي يقرر، تلك هي إجابة أمي. إذا منعها من الذهاب إلى المدرسة فما عليها إلا الطاعة. الفرق بين أمي والمديرة شاسعٌ. يعلم الله كم أحب أمي وأكن لها كل العطف والاحترام، ولكن في تلك اللحظة تألمت للإهانة التي تتعرض لها، ومن مَنْ؟ من طرف ولدها؛ ولدها الذي حملته وربته، وقامت بتغذيته سنين طويلة.

فهمت في تلك اللحظة أنها تنتمي إلى الماضي، بينما المديرة تنتمي إلى الحاضر، بعد أن تخلصت من أعباء التقاليد البالية التي تستعبد المرأة، أصرّت المديرة قائلة: يمكنها الذهاب إلى مدرسة البنات لتعلم مهنة، هذا سيسمح لها بالخروج والتنفس، وتتعلم مهنة تحتاجها كل امرأة. بعد تفكير قليل، وعدتها أمي بمصارحة أخي بذلك عند رجوعه في المساء.

وافق أخي، وفاجأني بهذه الموافقة السريعة، حان الوقت للتحكم فيها أكثر، ولتعلم أن البيت بحاجة لها أكثر فأكثر. هذا ما قاله دون الالتفات إليَّ أو مخاطبتي. سجلت في مدرسة البنات. في هذه المدرسة لا ندرس الرياضيات، ولا التاريخ ولا الجغرافية، وكل ما ندرسه هو الخياطة والطبخ وتربية الأطفال. لم أكن أرغب ذلك، لكنه أفضل من لا شيء. طلبت من أخي إذا كان بإمكاني تعلم القراءة والكتابة. لماذا تريدين ذلك؟ لست بحاجة إلى ذلك. ومهما كان الأمر، فذلك ممنوع بهذه المدرسة، ولو حصل ذلك، فمصيرك التوقف عن الدراسة نهائياً.

اقتنعت بما قاله أخي وقررت التفرغ الكامل إلى هذه الدروس التطبيقية، وعدتنا المديرة أن من تنجح بتفوق ستحصل على عمل عند التخرج. كان ذلك أيام استقلال المغرب عن فرنسة، فالمغرب الحديث بحاجة إلى سد

وظائف الفرنسيات المغادرات. تمسكت بهذا الحلم، وبذلت كل ما يتوافر عندي من طاقة لبلوغ هذا الهدف.

كنت أتصور أنه بتسجيلي في هذه المدرسة سوف تقوم العائلة دون شك بتحطيم مستقبلي، وكسر أحلامي بمشروع ما.

(3)

زواج بالإكراه

مثل ما توقعت، تحطمت أحلامي عند بلوغي الرابعة عشر من العمرة، وذلك عند نهاية شهادة التخرج، سيظل ذلك اليوم عالقاً في ذاكرتي مدى الحياة، مثله مثل كية بالنار المتوهجة. رجعت من المدرسة وكانت في انتظاري زوجة أخي محمد، كانت نظراتها المتوقدة نحوي توحي بأن هناك شيئاً يحاك بخصوصي، أحسست أنها تنتظرني. كان قلبي ينبض بقوة، كنت خائفة ـ خائفة من ارتكاب خطأ جسيم؛ خائفة من أنها ستتهمني بالتكلم مع أحد الشبان كالعادة، أو ما يشابه ذلك. اتجهت زوجة أخي نحوي، كانت نظرتها توحي بالخبث ولا تبشر بالخير.

- أتعرفين حان دورك.

- عن أي دور تتحدثين؟

- أخيراً سوف تتزوجين.

بقيت ساكتة لمدة ثوانٍ، فاتحة فمي، وشبه مخدرة، كنت أنظر إليها متمنية أن تفاجئني بضحكة عريضة وتقول لي: لقد نلت منك. أترين، لكن ذلك لم يحدث، وكل ما رأيته هو ابتسامة ماكرة ممزوجة بشيء من الرضا والتلذذ.

- أنا أتزوج هذا مستحيل عمري أربع عشرة سنة فقط، ومازلت طفلة، لا أستطيع ذلك، هذا مستحيل. من سأتزوج؟ أنا لا أعرف أحداً، قلت ذلك بكل براءة.

- سوف تتزوجين رجلاً من الحي؛ ذلك الرجل الضخم ذو البشرة السوداء، الذي يملك دراجة نارية. قالت زوجة أخي ذلك بشيء من الشماتة. لا أعرف اسمه، ولكني أعرف عمّن تتكلم. صديقاتي وأنا نسميه الغول؛ لأنه عملاق طوله متر وخمسة وتسعون، بينما أنا لا أتجاوز المتر وخمسة وخمسين. له بنية رياضية ونحيف، ووجهه يشبه وجوه الملاكمين ويداه ضخمتان. كان معروفاً بالعراك، فهو مخيف، ولا تتوافر فيه المواصفات التي أرغبها، فهو مخادع أيضاً، ومنحط ويفتقر إلى الذوق في ملبسه ومظهره، زد على ذلك فهو يمتهن مهنة البناء. بالنسبة لطفلة مثلي، فهو لا يناسب ما أصبو إليه؛ الأمير المنتظر.

- أتمزحين؟ ليس هذا هو العريس المنتظر، هذا مستحيل. عمره 25 سنة، فهو كبير في السن يكاد أن يكون أبي، قلت لها ذلك، وما زلت متمسكة بالأمل أنها ستصارحني أن كل ذلك مجرد مزحة.

- أنا لا أمزح، سوف ترين.

دخلت أمي في تلك اللحظة، التفتت إليها زوجة أخي وقالت: لقد أخبرتها بالقصة كلها، قالت ذلك بلهجة ساخرة لاذعة، جمدت في مكاني، ونظرت إلى أمي لعلي أجد شيئاً من الرحمة في نظرتها متمنية أن تقول لي إن ذلك غير صحيح، لكنها اقتربت مني وقالت لي بشيء من القسوة:

- لماذا أنت غاضبة؟ كل البنات تفرحن عند خطبتهن ما عدا أنت، وكأنك ذاهبة إلى جنازة.

قلت في داخلي إنها فعلاً جنازة: هي جنازتي الخاصة.

- أنا لا أعرفه، ولا أعرف شيئاً عنه.

- سوف تتعرفين عليه، وتعرفينه فيما بعد، هذا هو رد أمي.

لكني لا أرغبه، ولا أريد الزواج به.

- قالت أمي: اسمعي جيداً، لقد تزوجت وكان عمري إحدى عشرة عاماً، ولم أمت بسبب ذلك. لست أنت التي تخرق القاعدة وتغير القوانين، وسوف ترين أنه رجل طيب. زيادة على ذلك، فهو وحيد وليس له أهل.

بالنسبة لأمي بما أنه وحيد فهذا أحد الأسباب التي جعلت أمي توافق دون تردد، فوجود رجل بالبيت يخدم التقاليد والعادات؛ لأن وجود رجل بالبيت فيه حماية لمن تسكنه من القيل والقال.

بعد زواج أخي ومغادرة البيت، أصبح من الضروري إيجاد رجل لي ليحل محله لسد هذا الفراغ. كان ذلك من أولويات أمي، وكنت أنا الضحية لسد هذا الفراغ.

كان لأمي هدف آخر عبر تزويجي من هذا الرجل المقطوع من شجرة، فالكلمة ستبقى كلمتها لأنها هي ربة العائلة الكبرى، وجديرة بالاحترام.

هذه هي أسباب موافقتها على زواجي من هذا الغريب.

استسلمت للأمر الواقع وسألتها: ما اسم هذا الرجل؟

- اسمه عمر/ عمر موساوي.

اكتشفت أخيراً أن كل هذا كان محاكاً سابقاً، لم يبق سوى إعداد حفل الزفاف، ولم يجد أحد مناسبة لإفادتي بهذا الموضوع، ولا مشاورتي لإبداء رأيي بخصوص ذلك.

غادرت البيت ولجأت عند صديقتي عزيزة لأروي لها الكارثة التي وقعت فيها.

زواج بالإكراه، هذا معروف لدينا، لقد وقعت في نفس الفخ نفسه لعديدٍ من صديقاتي، كنا نعرف ذلك، لكن لم أتصور أبداً أن الفخ نفسه في انتظاري، كنا ننتظر مصيراً آخر ونعتقد أن أهلنا يكنون لنا كل الحب، ولا يمكن لهم الغدر بنا بهذه الطريقة. كانت عزيزة أكثر تأثراً مني، ربما لأنها تخشى أن يحصل لها ما حصل لي، ثم علقّت سوف ترين سأذهب إليه، وأقول له كلمتين، قامت واتجهت إلى ورشة بناء قريبة من بيتها حيث يعمل عمر لتحاول إقناعه بالتخلي عن الزواج بي.

رجعت بعد نصف ساعة.

- هل رأيته؟

- طبعاً رأيته، وطلبت منه أن يتركك وشأنك وقلت له إنك لا تحبينه ولا تريدين الزواج به.

- وماذا بعد؟

- أجاب: سوف نرى، وانصرف لعمله.

لقد دفعت عزيزة ثمن جرأتها، ابتداء من صباح الغد أذاع عمر خبراً كاذباً أن أحد الشبان قبّل عزيزة، وانهال عليها أبوها وإخوانها بضرباً مبرحاً حتى سالت دماؤها.

كان رد عمر قاسياً عليَّ، فانهارت أعصابي، مما أجبرني على العودة إلى البيت منهكة. كثيرٌ من الضيوف كانوا في انتظاري، والكل يتكلم عني وبصوت عال، والكل يضحك ويتفاعل مع الأحداث. هناك خالاتي وعماتي والجيران الذين توسطوا لخطبتي لعمر، الكل حاضر لتناول الشاي والحلويات بهذه المناسبة، بدأ الحفل؛ حفل زفافي بينما أنا أبكي داخل غرفتي، ولا أحد يكترث لما يحصل لي، ولا أحد يهتم بي.

تذكرت قصة صديقة استطاعت ثني أمها عن قرارها، وإلغاء زفافها.

ربما تتفهم أمي وتشعر بمأساتي، وتصغي إليَّ وتلغي كل شيء، مسحت دموعي وتوجهت إليها.

- اسمعي يا بنتي، أنا أعرف ما يناسبك، وإذا كنت غير موافقة على الزواج، فما عليك إلا تحمل مسؤوليتك ومغادرة البيت فوراً.

قالت ذلك بعنف. مهما كان، فالكل موافق وسوف يصبح لك زوج وبيت، وقد وعدني بالعيش هنا معنا، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

ما أردته هو الحب لا غيره، ولا أريد معاملتي كبضاعة تباع وتشترى، كل ما أردت هو تقرير حياتي بنفسي.

كنت أعتقد أنها ستضمني إلى صدرها وتشفق علي، لكنها أبت ذلك، ولم تبدِ أي اهتمام لما قلت. أصبحت تعاملني معاملة الخائنة التي تريد

التخلي عن الزواج في آخر لحظة. رجعت إلى غرفتي باكية، أمي لا تشعر بمعاناتي، ولا تريد ذلك. تفضل احترام التقاليد البائدة على سعادة ابنتها، ما العمل؟ كيف أخرج من هذا المأزق؟ حياتي ستنتهي، هنا ضاعت حياتي وضاعت طفولتي.

تذكرت أحلام طفولتي عندما كنت أتكلم مع صديقاتي عن عريس الأحلام، كنت أتمنى الزواج من رجل عسلي العينين، أبيض البشرة أسود الشعر، يشاركني أحاسيسي، ويفهمني ويتجاوب معي، ربما كنت متأثرة بصورة عمي الذي يتمتع بالتسامح والحنان الذي يغمر به زوجته.

سنين طويلة وأنا أسترق السمع مع صديقاتي على أحاديث الحريم في غرف الضيوف أو الحمام أو المجالس الخاصة، بعيداً عن سمع الرجال، كلهن تشكين من أزواجهن، فهذه تقول: زوجي لا يتركني أنام أبداً لأنه سكير، وأخرى تقول: زوجي عنيف، أما الأخيرة فتقول: زوجي يتردد على العاهرات، لم نكن نفهم جيداً عن ماذا تتكلمن، لكن ما كنت متأكدة منه أنني لا أريد أن أشبههن، لم نسمع أبداً أنهن تتكلمن عن الحب، كلهن تزوجن عن إكراه ولكنهن مستسلمات، وكان ذلك طبيعياً جداً، كانت صديقاتي تتساءلن إن كان هناك حبٌّ أصلاً.

كنت أطمئنهن أن الحب موجود، وعمي هو أحد الرموز لهذا الوجود، عمي الذي يغمر زوجته بالحب والحنان، مثله مثل بعض الأولياء لصديقات فرنسيات؛ ولأني شاهدتهم يتبادلون القبلات بعطف وحنان؛ فهذا دليل على وجود الحب دون شك، ولكن لا نصيب لنا نحن في هذا الحب، كيف لا أُحِب وأُحَب مثل غيري؟ لماذا يجب أن أشاطر الآخرين نفاقهم وأكاذيبهم، وأخضع لسيطرة رجل لا أحبه؟

فالزواج كنز بالنسبة لأي امرأة تم اختيارها، وعندما تزوج فإنها لا تريد إلا المحافظة على هذا الزواج، فهي مستعدة لقبول أي شيء، والتنازل عن أي شيء، والابتعاد عن أي نفاق من أجل المحافظة عليه، أما الحب الحقيقي فلا تحلمن به، وشغلهن الشاغل في شيء آخر.

إن تزوج علي قتلته، كلهن ترددن ذلك في الحمام أو حول مائدة الشاي، ولا تتكلمن إلا عن ذلك. كيف يمكن منع أزواجهن من الزواج عليهن؟ كل واحدة عندها الحل؛ حلها الخاص. لكن ما يتردد أكثر هو السحر، كلهن تلجأن إلى السحر بالأعشاب البرية أو الشعوذة. خوفهن من زوجة ثانية أو الطلاق يزيد من قلقهن ويشغل بالهن باستمرار.

هذا هو عالم الكبار؛ عالم كله خداع، وكله أسرار ومكائد، كنا نتلذذ عند سماع هذه الأسرار ونتخوف مما سيحصل لنا مستقبلاً. مثل من تفتح أمامها أبواب الممنوعات، الممنوعات كلها المحرمة علينا. إنه عالم الأسرار، عالم الصراع من أجل السلطة، السلطة التي ستحل محل الحب والعطف والحنان.

عندما نفاجئهن وهن يتكلمن، كانت نظراتهن تخيفنا، وكأنهن تحقدن علينا وكأننا نجسد كل همومهن. بالنسبة لنساء مثلهن تجاوزن الخامسة والثلاثين، ولهن أربعة أو خمسة أطفال، فالبنات من أمثالنا تشكل خطراً عليهن وتهديداً لهن مستقبلاً.

كنا لا نولي أي اهتمام لهن وأقسمنا ألّا نكون مثلهن أبداً، لكن حان دوري لأقاسمهن المصير نفسه.

تذكرت صديقات الحي الفرنسيات وآباءهن ومداعبتهن لبعضهم بعضاً، وقبلاتهم. إني أحسدهن على ذلك، فعند رؤيتهم أتصور أني خلقت في عالم لا يناسبني.

لاحظت إحدى خالاتي دموعي، فاقتربت مني وقالت: لماذا تبكين؟ قالت ذلك وكأنها تريد مواساتي، من اليوم فصاعداً سوف تصبحين امرأة. كل ذلك زاد من دموعي؛ لأن عمري أربع عشرة سنة، وما زلت طفلة ولا رغبة لي أن أصبح امرأة، ولا أريد أن أصبح زوجة هذا الرجل الذي لا أعرفه.

- سوف ترين، أنت محظوظة بالزواج. سوف يصبح لك بيت واحترام، هذا ما كانت تظنه.

كيف يكون المرء محظوظاً، وهو يدفن حياً. هذا ما أردت أن أقوله لها، لكن لماذا الإجابة؟ لأنهن كلهن يتقبلن التقاليد ومصيرهن دون أي تردد وأي سؤال.

لقد قبلت العائلة تزويجي تحت ضغط العادات والتقاليد، ففي ثقافتنا وتقاليدنا المرأة دون رجل لا تساوي شيئاً، فالمرأة محتقرة ومنبوذة من المجتمع، ومصدر للإهانة، وخراب للعائلة، فالبنت التي لا تتزوج تعدّ قليلة التربية، وغير متحشمة وأكثر من ذلك تصبح غير مرغوب فيها، ولا يتقدم لخطبتها أحد، وتسبب العار للعائلة كلها.

نهايتها الفشل وعدم الاحترام، وتذمر الناس منها، ونعتها بالعاهرة أحياناً. هذا هو سبب تزويج البنات في أقرب وقت في سن الأربعة عشرة أو الثانية عشرة، أو الحادية عشرة أيضاً، وعندما تصبح في الثامنة عشرة يفوتها الركب ويصنفونها ضمن العوانس.

بالنسبة للأولاد فهذا يختلف، حتى وإن بقي إلى الثلاثين دون زواج، فلا مشكلة في ذلك، فالولد له الحق في التمتع بحياته، وعمل ما يريد. أما البنت فهي المذنبة دوماً.

كان كل الحضور يتكلمون بصوت عال ويضحكون كأنهم فرحون؛ لأنهم قرروا الخلاص مني، شعرت بالخيانة، خيانة كل الحاضرات اللاتي تخلين عني، كان بإمكانهن تفهم وضعي ومساندتي. لقد مرت كلهن بالتجربة نفسها. كلهن تزوجن بالإكراه، ومن مجهول أيضاً. كلهن تعرفن ما أشعر به.

ومع ذلك ودون تردد تفرض علي وعلى بناتهن وبنات بناتهن وبنات عماتهن، التقاليد نفسها التي تزيد من اضطهادهن. أنظر إلى كل من حولي من النساء، ولا أرى في ابتسامتهن سوى التلذذ والخبث. كلهن تعرفن أنني مهددة بحياة تفتقر إلى الحب. حياة بلا طعم ولا حرية، ومع ذلك لا تحركن ساكناً لإنقاذي.

(4)

طفولتي المغتصبة

في اليوم الثاني عند عودتي إلى البيت وجدته جالساً بالصالون، إنه طويل القامة، ويرتدي بدلة قصيرة. كان جالساً ومرتاحاً كأنه يسكن عندنا منذ سنين.

جاء ليقدم طلبه رسمياً محملاً بالعديد من الهدايا لي ولأمي ولأختي، تجنبت رؤيته وذهبت مباشرة إلى غرفتي، وأخذت أتنصت على أي حركة وأي كلمة.

كنت أسمع صوته، المعسول وهو يقول لأمي، إنه سيسكن معنا حتى لا أفارق أمي، سوف أكون ابناً لك. كنت لا أراه لكني سمعت أمي تضحك للتعبير عن سعادتها، وشيئاً فشيئاً تعالت الأصوات والضحك، بعد مشاركة الجيران في هذه الجلسة السعيدة لاحتساء الشاي وتناول الحلويات.

انتهى الأمر، لقد وقعت في الفخ ولا مجال للخلاص.

شاهدت الدمار حولي؛ دمار أحلامي، بالطبع شاهدت الظلم بأم عيني، وتم تحديد موعد الزفاف في 15 نوفمبر 1960 أي بعد خمسة أشهر. بالنسبة لي فكأنه لم يبق من حياتي سوى خمسة أشهر. لتخفّف عني سمحت لي أمي بالعمل إلى ذلك الحين. أخبرتني أيضاً أن زوجي المفترض وعدها بالسماح لي بمتابعة العمل بعد الزواج، يا لها من مواساة

أصبح عمر موساوي يتردد على البيت يومياً، فهو يعرف أني أراقبه لذا كان لا يحاول أبداً أن يكلمني مباشرة. كان يغمرني بالهدايا بمناسبة أو دون مناسبة، مرة يأتي بتنورة، ومرة بقميص يضعه فوق طاولة الطعام. بكل تحفظ كنت أنتظر انصرافه؛ لتناوله مثل الحيوانات التي تروّض.

في المساء نخرج بعد الأكل للتنزه فيلحق بنا، هنا أيضاً كان لا يقربني يمشي بجانب أمي وأخي، انبهرت العائلة أمام السلوك الراقي لهذا العملاق، وفي يوم من الأيام فاجأنا بأبيات شعرية، وفي يوم آخر قطف لكل منا وردة، من يدري لعله فعلاً رجل مهذب «جنتلمان» كما يقولون.

لا أعرف ما هو الحب، لأني لم أحب أبداً. كنت أتصور عبر تصرفاته واحترامه، أن من الممكن محبته، من يدري؟

أخذ الوقت يمر وأخذت ألين شيئاً فشيئاً، ليس لي خيار آخر. في شهر أكتوبر قبل الزواج بشهر وجدت عملاً في مبيت، تم تعييني مسؤولة عن الشراشف والملابس الداخلية للنزلاء، كنت فخورة بالحصول على هذا العمل؛ لأني سأفيد المجتمع من جديد، وستتغير أفكاري وأتخلص من التفكير في هذا الزواج الذي طال انتظاره.

قمت بانتقاء فستان أبيض للزواج؛ فستانٍ غريبٍ يختلف عن اللباس التقليدي الذي تتزوج فيه كل بنت من بنات القرية.

اخترت الفستان الأبيض لأنه يجسد حلم كل طفلة في سني، وهو أيضاً تحد للباس التقليدي والعادات الغابرة، فهي طريقتي الخاصة للتعبيرعن سخطي على كل العائلة، لأقول لهم صحيح أنكم أجبرتموني على الزواج من هذا الرجل، وسوف أتزوج، لكنكم لا تستطيعون سلب أفكاري وحبي للحرية.

تفاجأت بموافقة أمي وزوجي المحتمل على هذا الطلب الذي يشكل تحدياً للتقاليد دون أي سؤال ولا تردد.

هذا النصر لا يكفي لتغيير مزاجي، حان يوم الزفاف، والحفل سيستمر مدة ثلاثة أيام لكنه من الصعب رؤية ابتسامتي أثناء الأيام الثلاثة هذه، بالعكس كلما زاد فرح أمي وعماتي وخالاتي زادت دموعي، وتدفقت بغزارة، وكأنهم يحضّرون جنازتي. صديقاتي يحاولن مواساتي بشتى الوسائل، لا تهتمي بما يحصل لك سوف تتزوجين وتغادرين.

كانت الساعة الثانية نهاراً، غادر من تبقى من الضيوف، ورافقتني أمي إلى غرفة الانتظار، واستلقيت على السرير في انتظار قدوم زوجي. كنت مشدودة الأعصاب، وخائفة كنت أعرف أنه سيجامعني. مع أني لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع. كنت أحاول تصور هذه العملية عبر ما سمعته هنا وهناك، سوف يباشرني، ويبقى هكذا مدة ثوان وننام. كل ما قالته أمي إنها عملية مؤلمة أول مرة، ولا يجب رفض هذه العملية؛ لأن ذلك عار وفيه إساءة للعائلة، كنت أخشى قدوم هذا العملاق الذي أصبح زوجي.

طبعاً لم أكن عارية بل كنت ألبس السروال التقليدي والقميص الذي سيثبت أني بكر بعد تلوثه بالدم الذي سيسيل بعد هذه المذبحة الشنيعة.

شعرت بقدوم عمر. قلبي ينتفض خوفاً، فتح الباب وجلس فوق السرير. لا تخافي قال ذلك بلطف سوف يسير كل شيء بسهولة، ونزع ملابسه وغمرني بجسمه العملاق.

جمدت في مكاني كالمشلولة وتملّكني خوف شديد. كيف يوافق أهلي على عملية كهذه، إنها عملية اغتصاب لا غير، أغلقت عيناي.

في لمح البصر أصبحت امرأة. عندما تأكد أني بكر لم يتابع، وانسحب من فوقي.

وفي الصباح أخذت أمي السروال الملوث بنقطة دم لعرضه على أخي سيد العائلة وفقاً للتقاليد المعمول بها. كانت أمي فخورة، وهي تحمل الدليل القاطع على أني بكر، وهنأتني على ذلك لأني لم أُلْحِقَ العار بالعائلة. هذا كل ما يهم ولا تهم معاناتي وآلامي.

ولمدة ثلاثة أشهر لم يتغير شيء في حياتي. في هذه المدة تابعت عملي في المبيت يومياً.

انتقلت مع زوجي للسكن في شقة قريبة من بيت أمي، مما سمح لي بقضاء نهاية الأسبوع معها. في إحدى الليالي من شهر يناير بينما كنت شاردة في التفكير –وكنت أقول لنفسي إن هذه الحياة التي أعيشها قد لا تسمح لي بالتمتع بالسعادة الزوجية، لكنها قد تساعدني على التحمل– تسلل عمر إلى الغرفة بهدوء، لاحظت شيئاً ما يشير إلى أنه غير طبيعي. انتهى الأمر. لقد أخبرت مدير المبيت بانتهاء عملك لديه، من الآن فصاعداً سوف تبقين بالبيت.

– لكنك وعدت أمي بمتابعة عملي.

– أنا أفعل ما أريد. لا حق للمرأة في العمل هذا غير مقبول وانتهى الأمر.

أسرعْتُ إلى أمي لكي تتدخل وتجبر عمر على الوفاء بوعده، لا فائدة من ذلك. قالت إذا لم يوافق على العمل ليس لك أي كلام. الاستسلام التام والرضوخ نفسه لمطالب الرجل، تلك هي القاعدة، وأصبحت أقضي

كل وقتي بالبيت في انتظار مرور الوقت، لقد تغير عمر، لقد تغير عن الأيام التي كان يغازلني فيها، واختفت كلماته المعسولة، وتغيرت ملامح وجهه. بدأ يسهر ولا أعرف أين يذهب، وأصبح لا يوجه لي أي كلمة حتى لتوجيه اللوم لي أيضاً. كان يشكو من ميولي للحرية، وسوء طبخي وقلة اهتمامي، ولهذه الأسباب لا يكف عن مواجهتي، بدأ يخيفني.

زيارة غريبة جاءت لتأكيد مخاوفي. في إحدى الليالي بينما كنت جالسة عند أمي إذا بالباب يدق، وجاءت امرأة لتزودنا بمعلومات عن زوجي، فهو ليس بالرجل الذي يدعي.

ادّعت هذه المرأة أنها أم زوجة عمر الأولى، والدليل على ذلك ابنته التي ترافقها، وعمرها الآن ستُّ سنوات، وقد تنكر لها والدها وتبرأ منها، كما أخبرتنا أيضاً أن عمر سبق له أن تزوج ثلاث مرات في مدن أخرى، وأن له سوابق في السجون؛ لأنه فقأ عين إحدى زوجاته بعد أن ضربها بكرسي، وهو الآن مسرّح من السجن بكفالة.

أخذ جسمي ينتفض بقوة إثر هذا الخبر المفاجئ. من هو هذا الرجل الذي وقعت في شباكه؟ انهارت أمي عند سماع هذه الأخبار، لكن أنا متاكدة أنها لا تخشى المصير الذي في انتظاري؛ بل تخشى العار الذي سيحلق بالعائلة. لو انتشر هذا الخبر سيلومها كل الأهل؛ لأنها سارعت في تزويجي من هذا الرجل دون إجراء أي تحريات عنه. انتشر الخبر وطلب مني الأهل؛ الأهل كلهم عدم التكلم في هذا الموضوع. فهمت أنه لا يمكن الاعتماد على أحد لمواجهة عمر بهذه الحقائق المفاجئة.

أخبرته في الليلة نفسها بما حصل، انتفض وأخذ يصرخ وطلب مني إخباره بمصدر هذه الأخبار. نفى كل هذه الأخبار جملة وتفصيلاً، وأنهى كلامه قائلاً: استعدي للرحيل إلى الرباط في الصباح باكراً بدعوى أنه وجد عملاً هناك.

وكانت الغاية من الرحيل، والابتعاد حوالي مئتي كلم عن قريتنا هو إبعادي عن أمي وعن الأهل طبعاً، كيف أَقْنَع أمي بالموافقة على زواجي به؟

عند مقابلة أمي أول مرة كان يرتدي بدلة (لا طعم لها ولا لون)، ووعد أمي بتسخير ما لديه لإسعاد ابنتها. سوف يعاملني معاملة الأميرات، وسوف يسمح لي بالعمل، وسوف يسكن معنا حتى يحصل على سكن مناسب يليق بزوجته. اتضح الآن أن كل هذه الوعود تبخرت في الطبيعة.

كان عمري أربع عشرة سنة. ما زلت طفلة بريئة لكني أشعر أن فضاء الحرية الذي أعشقه بدأ ينكمش ويتقلص، وأن هذا الرجل سوف يجلب لي الشقاء الأكبر.

(5)

عبدة لزوجي

استأجرنا غرفة لدى أحد السكان في الرباط، وبدأت مرحلة العذاب. في إحدى الليالي بينما كنت جالسة شعرت أنه ينظر لي ويتفحصني منذ مدة طويلة، وفجأة أمسك بي من عنقي بكلتا يديه وقال: أتتذكرين أنك قلت لإحدى صديقاتك أنك لا ترغبين في الزواج بي؟ ماذا ترين الآن؟ لقد أصبحت ملكي تفعلين كل ما أريد، قال ذلك بابتسامة كلها خبث ومكر، ورمى بي بعد أن وجه لي صفعة عنيفة، وكانت هذه أول مرة يضربني فيها. بقيت مذهولة أمام هذه الظاهرة الجديدة ظاهرة العنف. العنف الذي كان يسكنه، وكأن الشيطان تمرد بداخله، شعرت بتفجر الجنون داخل عينيه، فزرع الرعب في أعماقي إثر هذه الصدمة العنيفة. تناولت ممسحة وانصرفت أنظف ما تبقى من الغرفة. ما زلت أرتعد من الخوف، وحاولت التأكد أن ما حصل مجرد حادث عابر دون أضرار ولا عواقب، لكن ما هذه إلا بداية العنف. لم تمض إلا أربعة أشهر على زواجنا وشيئاً فشيئاً أصبح كل عذر مناسبة لدفعي وصفعي، ومن هذه المبررات نوعية طبخي، وتصرفاتي التي لا تدل على الطاعة والولاء ونقص المصاريف، أو لمجرد التنفيس عن غضبه بدأ يضربني أكثر فأكثر، وبدأ العنف يزداد أكثر فأكثر أيضاً.

في إحدى الليالي ضربني بعنف وتركني ملقاة على الأرض في شبه غيبوبة. أتصور في نظراته الملتهبة أنه مرتاح وراض عن نفسه كل الرضا؛ لأنه أدبني وقهرني، لكنه لا يعرفني جيداً. في هذه اللحظة بالذات وأنا

ملقاة على الأرض، في شبه غيبوبة ووجهي ينتفض من شدة الضرب، وعيناي تدمعان ألماً، عاهدت نفسي ألا أتركه أبداً يسلبني أغلى شيء لدي ألا وهو حريتي.

أنا أعرف ماذا يريد، يريد التنفيس عن غضبه، يريد عبدة مطيعة تركع أمامه عند تلفظه بأي كلمة، وتخضع لإرادته في أي لحظة.

لماذا يجب أن أستسلم؟ لقد تعلمت في طفولتي أن المرأة يجب أن تكون ربة بيت محترفة، ومن أجل ذلك يجب أن تعامل باحترام، ألا تعامل بالعنف والسبّ. بالنسبة لعمري لا فرق بين الزوجة والحيوانات الأليفة، لكن على أي أساس تعدّ المرأة أقل شأناً من الرجل؟ يمكنه منعي من العمل وإهانتي، وضربي لكنه لا يستطيع المساس بشرفي. كيف يمكن لبنت مثلي -طولها مئة وخسمة وخمسون سنتيمتراً ووزنها أربعون كيلو غراماً- أن تقاوم عملاقاً. كل جسمي بداية من أرجلي إلى وجهي يحمل آثار ضربه وعنفه، زاد ضربه لي حتى أصبح سكان الحي يخشون على حياتي. في يوم من الأيام واجهه جارنا بالكلام الآتي: هذا مبنى محترم. لا نريدك الاستمرار في ضرب عائشة، أنت على وشك قتلها وما زلت متمادياً في ضربها، بدا على عمر شيء من التأثر بعد هذه الكلمات، واستخلص عبرة منها؛ فمن اليوم وصاعداً عندما يضربني يغلق الباب بالمفتاح، ويمنعني من الخروج حتى تزول آثار الضرب.

سعادتي الوحيدة أجدها عندما أستطيع الخروج والذهاب إلى الحمام العمومي، الحمام في ثقافتنا ليس للنظافة فقط، لكنه متنفس لكل امرأة للتخلص من هموم الدنيا أثناء ساعات معدودة ونفض العبء الثقيل الذي حملتنا به هذه الثقافة بسلبنا «هويتنا كوننا نساءً»، الحمام ليس هو الحمام

الذي يتصورونه في الغرب. ليس هناك أي رائحة من روائح الإثارة الجنسية، فهناك عرق وزيوت للتدليك، وشاي للترويج عن النفس، هذا هو الحمام.

لقد تعودت على الذهاب إلى حمام صغير قريب من العمارة التي أسكن فيها. في يوم من الأيام وبعد خمسة أشهر من زواجي رأيت إحدى النساء تنظر إلي بدقة، ماذا تريد مني؟ وعن ماذا تريد أن تتكلم؟ قالت لي: أنت حامل، مبروك، أنا حامل، أخذت أتفحص جسمي وبطني الذي استمر في الزيادة الأشهر الأخيرة.

حزمت أمتعتي وخرجت، ذهبت مباشرة لزيارة الطبيب، أكد لي أني حامل، وفي الشهر الثالث من الحمل.

هذه البشرى أسعدت عمر كثيراً، لكن سعادته ليس سعادة الأب الذي ينتظر مولوده؛ بل سعادته الخاصة. ها... ها.. لقد أصبحت لي الآن لا يمكنك الهروب بعد اليوم.

بالرغم من الحمل لم يكف عن ضربي، فالضرب أصبح عادة يومية، فأنا لا أعمل، أما هو فقد أصبح يخرج أكثر فأكثر، وفي بضعة أشهر باع كل ما أمتلكه حتى أثاث البيت وذهبي وتجهيزاتي الزوجية وبعض ملابسي أيضاً، ماذا يفعل بالنقود؟ لا أريد معرفة ذلك. كل ما أعرف أني أصبحت أعيش في فقر تام، وفي أغلب الأحيان لا يتوافر في البيت ما يكفي وجبة واحدة، ولا أستطيع شراء فستان خاص بالحوامل أيضاً، أنا مضطرة لتفصيل واحد من أحد ستائر البيت الناعمة.

داخل بطني الجنين يصارع من أجل البقاء، ولكن كم من الزمن سوف يستمر كذلك؟ علم صاحب البيت بالحالة التي أنا فيها، فهدده بإبلاغ

الشرطة بذلك إن لم يأخذني عند أهلي الذين رحلوا إلى الدار البيضاء، بالرغم من حملي كان وزني لا يتجاوز ثمانية وثلاثين كيلو غرام، وقد انزعجت العائلة كلها عند رؤيتهم لي.

- أرأيت كيف أصبحت ابنتي؟ أنا زوّجتك إياها في صحة جيدة، فأرجعتها لي جلداً وعظماً.

هذا ما قالته أمي لكنه لم يحرك ساكناً.

- هي زوجتي أفعل بها ما أريد.

- على كل حال فأنت غير قادر على الإنفاق عليها سوف تبقى عندي لكي تضع مولودها في أحسن الظروف.

- هذا ممكن ولكن بعد ذلك ترجع لتعيش معي، ،إذا رفضت ذلك سوف أقضي عليها. قال ذلك بعنف، وانصرف وصد الباب بقوة.

بعد ثلاثة أشهر، أي في يوليو عام ألف وتسعمائة وواحد وستين رزقني الله ببنت سميتها نادية، لم يرها عمر بعد. منذ مدة تعوّد على الغياب مدة طويل دون أي إشعار.

لكن وقوف أهلي بجانبي يكفيني بعد أن تأكدوا من معاملته السيئة لي، اعتقدت أنهم سيرفضون عودتي معه عند قدومه لاسترجاعي.

ولكن ذلك لم يحدث. قالت لي أمي بقسوة: أنت زوجته ويجب عليك أن ترجعي معه. لم تحاول فهم وضعي ولا مواساتي. خلف هذا الاحترام للتقاليد والعادات هناك الخوف من العار الذي قد يلحق بالعائلة لو تمسكت بي عندها، وسوف يلومها الأهل على أنها تهاونت وتساهلت في تزويجي لهذا الشخص الغريب.

قررت العودة إلى الجحيم من جديد حاملة معي مولودتي الجديدة. بعد ثلاثة أشهر فقد عمر عمله، فقررنا الرجوع إلى أزرو مسقط رأسي. أصبحت حاملاً من جديد بالرغم من الضرب والتعب وسوء التغذية، أصبحت أماً مرة ثانية. لم أعد وحدي لتحمل الضرب إني أحارب من أجل الدفاع عن ابنتي، ومن واجبي حمايتها من عنف عمر وسوء معاملته لِي، مرضت نادية وكان عمرها سبعة أشهر، وأصابتها نزلة معوية حادة ولا نملك نقوداً لشراء الأدوية. كنت أعالجها بالأعشاب التي أحصل عليها من الجيران، لكنها لم تنفع، وساءت حالتها شيئاً فشيئاً، أما أبوها فكان لا يولي أي اهتمام بها. ما عليك إلا الذهاب إلى المستشفى، هذا ما تكرم به علي، لكن المستشفى يبعد عن البيت مسافة كيلو مترين وليست لدينا سيارة. أخذت ابنتي وذهبت إلى المستشفى مشياً على الأقدام، كانت نادية بين الحياة والموت مثل دمية من الورق.

عند وصولي المستشفى أشرفت على الموت فعلاً، وأصبح نبضها يدق ببطء شديد قدمت الممرضات للكشف عليها، وعرضها على الطبيب، ولكن لا حياة لمن تنادي. الأطباء أصيبوا بالذهول أمام حالة ابنتي وهي على وشك الموت، اقتربت منهم باكية وأخذت ابنتي وضممتها إلى صدري، لقد توفيت وأنا أحتضنها عند الساعة الرابعة فجراً. لففتها في شرشف أبيض بعد أن قبلتها آخر مرة ورجعت إلى البيت والدموع تتدفق من عيناي ممسكة بها بين ذراعي، اعتقدت أن الدفء سيحييها بعد موتها.

عند دخولي البيت كان عمر نائماً. لا يزال يغط تحت تأثير ما احتساه من الخمر البارحة. كنت أتألّم وابنتي جثة هامدة بين يدي، ومولود آخر له من العمر ثلاثة أشهر ينتظر الموت داخل بطني. من أجل هذا المولود القادم يجب أن أجمع كل قواي للمحافظة عليه.

كنت أعتقد أن حياتي سوف تلين شيئاً فشيئاً، لكن الله أراد غير ذلك.

بعد موت نادية فقدت كل قوتي وأصبحت غير قادرة على تلبية ما يترتب على الزوجة من واجبات تجاه زوجها، ولم يحاول فهم الحالة التي أصبحت فيها، وراح يسبني وينعتني بالعاهرة، وكل ما يمر بذاكرته من أوصاف قذرة.

في إحدى الليالي أصبحت الصفعات غير كافية لشفاء غلّه، فأرتمى فوقي وجامعني بالقوة، ولم يكن بإمكاني مقاومته. كل ما كنت أستطيع فعله هو مواجهته بحقدي. لكن هذا كان كافياً لتغذية عنفه وزيادة تهيجه، وأخذ يهددني أثناء اغتصابي. أنت ملك لي أفعل بك ما أريد.

ساءت أحوال حملي الثاني، رزقني الله بولد غير مكتمل النمو، ولم يتجاوز السبعة أشهر. سميناه عبد الحميد، لقد أقمنا له حفلاً بعد سبعة أيام مثل ما تقتضيه التقاليد المغربية وقمنا بإدخاله داخل فروة خروف مثل ما هو معمول به، وفجأة تدهورت صحته، وأصبح أبيض مثل الحليب وشفتاه سوداوتان. رفض الرضاعة أيضاً، هذه المرة لم أتهاون. أبوه غائب عن البيت كعادته، وبمساعدة الجيران ذهبت به إلى المستشفى، أبوه لا يكترث طبعاً ولا تهمه المصائب التي تحل ببيتنا. توفي عبدالحميد بتعفن الدم. لم أكن أعرف أن هذه التقاليد يمكن أن تحدث تعفناً كهذا لولدي. حتى اليوم لم أجد مبرراً لما حدث، وما زلت أعاني من مسؤولية وفاة ابني، وأحتفظ بهذه المأساة داخل صدري. هذه المرة الثانية أثناء أربعة أشهر أعود فيها إلى البيت حاملة جثة هامدة لولدي بين ذراعي.

انهارت قواي وبكيت، من أين أتت هذه اللعنة التي تطاردني؟ عمري مازال صغيراً وفقدت مولودين، وتزوجت رجلاً عنيفاً لا أحبه، يعاملني معاملة الكلاب. هل هذه هي الحياة؟ تعلمت من حياتي أنه لا يجب الاعتماد على أحد، ويجب الكفاح من أجل قليلٍ من السعادة.

قرر عمر ألّا يعمل إلا عندما يرغب في ذلك، يقضي كل وقته في المقاهي. مع العلم أنه لا بد من التغذية، لذا طلب مني الانشغال ببعض أعمال الخياطة. بالرغم من ضعفي بعد حملين فاشلين وتجربة مريرة. لست قادرة حتى على التعبير عن فرحتي بالعودة إلى العمل. ليس حباً في العمل كما كنت أحلم، ولكن من أجل البقاء فقط.

تذكرت كل بنات جيلي المتزوجات، والمكرهات على العيش مع أزواجهن بالرغم من عدم حبهن لهم. كنت لا أهتم بذلك. لأن هذه الحياة قد لا تكون من نصيبي، وسوف لا أتقبلها أبداً. واليوم أشعر أن حياتي أشد تعاسة من حياة صديقاتي البائسات؛ لأني أصبحت في أسفل سافلين. كان بإمكاني تصور مستقبل خاص بي. بالرغم من إرادتي لكن لا أرى كيف أخرج من هذا المأزق الذي لا نهاية له. تبدو كل المنافذ مغلقة، وليست لي إرادة للإفلات ممّا خططه القدر لي.

وبعد سنة وفي يونيو 1963 رزقني الله ببنت سميتها نادية مثل البنت الأولى، ليس هناك أي مانع في ذلك. بالعكس ربما يخفف ذلك من معاناتي. ربما هي طريقة لطرد النحس وتجربة الحظ من جديد مثل من يعيد السباق بعد انطلاقة فاشلة، وفوراً شعرت أن نادية تتمتع بصحة جيدة مفعمة بالحيوية. مجرد ابتسامة منها تغمرني بالسعادة، وتنسيني الظلمات التي أتخبط فيها من جراء سوء معاملة زوجي وعنفه الشديد.

أجبرتني ظروفي أن أطلب ما تيسر من الطعام من أهلي؛ لأن الرضاعة أنهكتني، وشعرت أني أتلاشى شيئاً فشيئاً. بعد سنة ونصف أصبحت حاملاً من جديد. لكن هذه المرة سمع عمي هامان من زوجته التي تزودني بالطعام يومياً بحالتي السيئة، فخطفني وأجبر عمر على تركي لمواصلة الحمل عند أمي التي رحلت مع أخي إلى مكان قرب مراكش، وهناك وضعت مولودي بمساعدة أمي، وأخي ينتظر في الغرفة المجاورة. عمر كان غائباً كعادته، ولم يحضر ولادة ابنته الثانية الجميلة. في الحقيقة غيابه لا يزعجني. بل يريحني. من يعرف ماذا سيفعل حضوره في هذه المناسبة؟ قد يزيد من معاناتي وآلامي وضغطي، كما سيعرض ابنتي للخطر. بعد سبعة أيام ظهر عمر لحضور حفل اليوم السابع التقليدي، وجاء خصيّصاً ليخبرنا بشيء مهم. لقد حصل على عمل في فرنسة، وهو يستعد للسفر لقد حصل على جواز سفر بالمناسبة، وسوف يسافر بعد أيام.

لم أصدق كل ذلك، هذه معجزة ورحمة في الوقت نفسه، أخيراً سوف أتخلص من زوجي دون إلحاق العار بعائلتي، وأخيراً سوف أتفرغ لبناء حياتي بعيداً عن العنف والإهانات اليومية والتفرغ لبناتي.

من الغرابة أن عمر تظاهر بالعطف معي بعد أن سافر إلى فرنسة، لم يكن هكذا عندما كان معي.

بعد خمسة عشر يوماً أرسل لي أول حوالة، لم أكن أتصور يوماً من الأيام أنه سيكون كريماً تجاهي.

عاودني الأمل. إذا بقي عمر في فرنسة ربما قد أجد الراحة المنشودة التي أنتظرها منذ سنوات.

لكن الحلم لم يدم إلا قليلاً مرة أخرى. بعد شهر من سفره طلب من أخي الإعداد لسفري إلى فرنسة للعيش معه هناك. كان الغرض من الحوالات التي يرسلها لي هو شراء تذكرة الباخرة، وليس للإنفاق علي وعلى البنات.

مجرد التفكير في السفر إلى فرنسة يرعبني. لا أريد العودة إلى الجحيم من جديد وخصوصاً مع أطفال صغار، وهناك بفرنسة سوف أجد نفسي وحيدة بعيدة عن أهلي، ولا مكان لي ألجأ إليه عند الضرورة. لكن الأهل كلهم يصرون على الذهاب إلى فرنسة. سوف ترين، هناك في فرنسة سيختلف الوضع؛ لأن الحياة تختلف عن هنا، وسوف يعمل زوجك ويكسب المال.

كل أفراد العائلة أصروا على إقناعي. انتيهت بالاقتناع أن أهلي يفكرون في سعادتي ويعدّون سفري نوعاً من الاستثمار.

من هناك سوف أرسل لهم كثيراً من المال، هذا ما يفكرون فيه، لكن أنا ليست لي أي رغبة في السفر وليس هناك خيار آخر. هنا أشعر أني عالة على أهلي؛ لأنهم ينفقون علي وعلى بناتي، وليس لدي مكان آخر أذهب إليه. لذا يجب الموافقة، مرة أخرى لست أنا التي أقرر مصيري بل الآخرون – كالعادة – هم الذين يسطرون مجرى حياتي. الحمد لله أن الأيام ما زالت أمامي حتى أحصل على جواز سفر، إلى ذلك الحين سوف أتمتع بالراحة والهدوء. يجب قبل كل شيء بيع كل ما أمتلك. أشعر في داخلي أني لن أعود للعيش في المغرب أبداً، حتى وإن التحقت بعمر غصباً عني، سوف تكون الحياة بفرنسة أفضل من هنا دون شك.

حزمت ما تبقى من أغراضي وذهبت عند أخي بمكناس، وهناك في هذه المدينة الكبيرة يمكن الاستفادة أكثر من بيع هذه الأغراض؛ لأن أهل القرية هنا يعرفون وضعي وسوف يستغلون ذلك.

عند وصولي إلى بيت أخي كانت زوجته وضعت مولوداً، فكان حضوري مرغوباً فيه بالطبع. لأني سوف أساعدهم في الاحتفال بالمولود الجديد، مع أني أكره المشاركة في هذه الاحتفالات. لقد فقدت البوصلة، وأشعر أن حياتي مهددة، وأني محكوم عليَّ بالإعدام مع تأجيل التنفيذ.

أثناء الاحتفال بقيت جالسة على انفراد مع بناتي، وكنت أراقب الحضور حولي دون أي اهتمام بما يجري، شيئاً فشيئاً شعرت بضيق في الصدر. هل هكذا يعاملني أخي؟ مجرد خادمة لا قيمة لها يستخدمها عند الحاجة فقط؟

بكيت طوال الليل، واقتنعت أنه ليس هناك خيار آخر، يجب أن أرحل وأن أجمع كل ما تبقى لي من قوة للمغادرة إلى فرنسة لعلها تفتح لي باب السعادة.

وفي الصباح الباكر جمعت أغراضي، واتجهت مع بناتي إلى أزرو محملة بما تبقى من الأغراض من بينها ماكينة الخياطة. لم أتمكن من بيعها، ورجعت إلى بيت عمي الوحيد الذي يساعدني في كل الظروف، ويحترمني. أجهشت بالبكاء، وهو يحتضنني. طلب مني البقاء عنده مدة أيام.

لم يتبق لي فلس واحد. واضطررت لبيع ماكينة الخياطة، وقد تقطع قلبي لفراقها؛ لأنها الشاهد الوحيد على استقلاليتي.

في خريف 1965 حصلت أخيراً على جوازي، وركبت القطار المتجه إلى إيرون ببلاد الباسك برفقة بناتي وحقيبة صغيرة فيها قليل من الأمتعة. كان عمري 19 سنة، لقد حملت أربعة مرات وسوف ألتحق بزوجي الذي لا أحبه، ولا ينفك عن ضربي. لست أدري هل سيكون في انتظاري في المحطة أم لا؟ لا أعرف أين سينقلني هذا القطار؟ كل ما أعرف أنه سيبعدني عن عالم الآلام والأحزان.

فقد تكون فرنسة محطة لانطلاقة جديدة دون شك، لا أنظرُ إلى الخلف، ولا أحاول التطلّع إلى المستقبل الذي سوف نقوم ببنائه.